٤ ـ فى البحوث الروحية

للاستاذ عبد المغنى على حسين

منذ أسابيع ، وجهت إحدى المجلات المصرية إلى عدد من النوابغ المصريين استفتاء فى دعوى مخاطبة الأرواح أيصدقونها أم يكذبونها ، فأعرب البعض منهم عن تشككه فى صحة الدعوى أو نفى لها للاسباب الآتية : —

١ — إن الدعوى لاتقوم على أساس علمى .

٢ — إن واحدا من كبار الباحثين الروحيين غرق فى حادث الباخرة (تيتانيك) ، فلم لم تنبه الأرواح بالخطف الكامن له فى عرض المحيط ؟

٣ — لم نسمع بأن ساسة الدول وقادة الجيوش قد استخدموا الأرواح فى استطلاع مايضمره خصومهم السياسيون والحربيون

٤ — لم نسمع بأن رجال الأمن قد استغلوا مخاطبة الأرواح فى كشف خفايا الجرائم وتعقب المجرمين .

هذا مجمل الاعتراضات . ولكن مع احترامى لقائليها ، لست أراها تذهب بعيدا فى نفى دعوى المخاطبة . أما القول بأن الدعوى لاتقوم على أساس علمى فقول غامض . وما هو يا ترى المقصود بالأساس العلمى ؟ إذا كان المراد أن المخاطبة لم تأت كنتيجة منطقية أو رياضية لأحدى النظريات القائمة فى العلوم الطبيعية فالاعتراض صحيح ، اذ المفروض أن المخاطبة مشاهدة تجريبية مستقلة لاتقوم على نظرية علمية سابقة . ولكن من قال بأن النظريات العلمية السابقة يجب أن تكون أساس كل حقيقة علمية جديدة ؟ إن أساس الاسس العلمية هو المشاهدة والتجربة لا النظريات العلمية السابقة .

فى ساعة من ساعات التجلى السماوى ، جلس (جيمس واط) يرقب ابريق الشاى وهو على النار يغلى ويئز ، ورأى البخار يدفع الغطاء من آن لآن فيفتح فرجة يهرب منها ، فتملكت (واط) فكرة استغلال قوة البخار المحبوس ، ومال على هذا المبحث بكل ماأوتى من ذكاء ، وجد فى تهذيب ماسبق فى هذا الميدان من محاولات ساذجة (١) ، فوضع أساس صرح ضخم من البحوث والمخترعات ، وحمل البخار الناس فى البر والبحر وطاربهم فى جو السماء ؛ فهل كان اكتشاف قوة البخار بادىء ذى بدى نتيجة لنظرية علمية سابقة ؟ كلا . لقد كان مشاهدة تجريبية مستقلة .

وفى ساعة من ساعات التجلى السماوى ، تنبه وليم جلبرت من أهالى كلشستر بأنجلترا ، إلى أن الكهرباء (الكهرمان) المدلوكة بالصوف تجتذب خفاف القش ، وقصاصات الورق ، وكان جلبرت ذكى الفؤاد بحاثة ، فجرب وجرب ، ووضع أساس كل ما نعرف اليوم عن الكهرباء ، وما ننعم به من مخترعاتها وبدائعها ومعجزاتها ، فكشف الكهرباء أيضا لم يكن قائما على نظرية علمية سابقة ، بل كان مشاهدة تجريبية مستقلة .

القول إذن بأن مخاطبة الارواح لاتقوم على أساس علمى هو على الأقل قول غامض . أما بقية الاعتراضات فليس لها من الخطر ما لهذا الاعتراض الأول . وهى تفاصيل لاأرى التعجل بالخوض فيها ، ولعلها تتعلق بالارواح ذاتها ، وما تستطيع وتحب أن تفعله ومالا تستطيعه أو لاترى فى فعله خيرا . وإذا انجلت هذه البحوث عن إثبات علمى لوجود العالم الروحى ، وعن تقوية للايمان بأوتاد من العلم اليقينى ، فكفى بذلك نفعا ، بل ذلك هو النفع كله ، وهو اللباب الدسم ، أما مازاد عليه فألياف تافهة .

هذه الاعتراضات إذن قد أدلى بها على عجل . ولكن كما أنها لاتذهب بعيدا فى نفى دعوى المخاطبة فكذلك ردودى هذه لاوزن لها كاثبات لصحة الدعوى . إذ الحقائق العلمية لاتقوم على الجدل الكلامى ، وإنما الوسيلة إليها هى البحث التجريبى .

فهل ثمة بحث تجريبى جدير بالاعتبار يجرى فى هذا الموضوع ؟ فى العواصم بأوربا وأمريكا مجامع لهذا الغرض ، أعضاؤها من المثقفين المفكرين ، بينهم المحامى والطبيب والمربى والموظف والصحافى والأديب ، وعدد صغير من أساتذة الجامعات وأفراد من العلماء الأفذاذ . تستحوذ هذه المجامع على وسطاء يزعمون فيهم الأخلاص وطهارة الطوية ، ويدونون تجاربهم فى سجلات ، وينشئون لأذاعتها المجلات . وقد يختلفون فى تفسير الظواهر ، ولكنهم يجمعون بادىء ذى بدء على صحتها ، وانتفاء الدجل منها ، وأنها مفتاح ما استغلق من خصائص العقل البشرى ومدى علاقته بمحيط المادة

ولكن جمهور المفكرين لن يطمئنوا تماما إلى حكم هيئات كهذه فى موضوع خطير كهذا . قد يسلم الجمهور بأن فى الأمر ما يستحق

(١) الثابت أن أول من اخترع آلة بخارية هو مصرى من أهالى الاسكندرية يسمى (هيرو) وذلك فى سنة ١٣٠ قبل الميلاد ، كما أن بعض الاوربيين قد سبق (واط) إلى ترسم خطى المخترع المصرى .

البحث ، ولكن البحث الذى يرضيه يجب أن يكون بين جدران الجامعات . الجمهور يعتبر هؤلاء الباحثين ثائرين على العلم الرسمى ، ينشئون داخل مملكته دولة يحكمون فيها باسمه ، مع أنه — بحق أو بغير حق — لايعترف بدولتهم ولا بأساليب حكمهم . ولكن لما كان رجال من وزراء البلاط العلمى قد انضموا إلى الثوار فقد جل الحلب عن السكوت ؛ وهانحن أولاء نتساءل إلى متى تتحمل الهيئات العلمية الرسمية تبعة شذوذ الموقف ؟ ولماذا لاتجلب على الموضوع بالخيل والرجل ، فاما أن تهلكه وإما أن تضمه تحت جناحها ؟

العلم لا يعترف إلى اليوم إلا بشيئين — المادة وما يحرك المادة من قوى آلية . ولكن الروحيين ينادون بأن فى الكون أيضا قوى خفية ذات عقل وإرادة تؤثر فى المادة فى بعض الظروف . هل لهذه الدعوى من الحق نصيب ؟ سؤال ملح موجه إلى الهيئات العلمية الرسمية .

ويخيل إلينا أن العلم الرسمى قد بدأ يصغى إلى السؤال . فقد تألف بلندن فى الأيام الأخيرة مجمع جديد للبحث الروحى ، أعضاؤه من صميم رجال العلم ، يرأسه البروفسور جرافتون ألبوت سميث عضو المجمع العلمى البريطانى والعالم العالمى فى الأنثروبولوجيا (علم أصل الانسان) وأستاذ التشريح بجامعة لندن . أعلن هذا الرئيس تأليف المجمع بخطاب أرسله لمحرر مجلة اللانسيت (مجلة للعلوم الطبية) ونشر فى عدد ١٣ يناير من تلك المجلة ، وفيما يلى ترجمته :—

سيدى :

صحت كلمة عدد من رجال العلم على تأليف مجمع للبحث فى الظواهر المسماة عادة بالروحية أو غير العادية ، وذلك بالوسائل العلمية التجريبية المتبعة فى علوم الطبيعة والفزيولوجيا . يحدث كثيرا أن يدعى رجال العلم لأبداء رايهم فى تلك الظواهر فيعجزون عن الأتيان بحجج مستقيمة تبرر موقفهم السلبى ، والاولى بهم لكى يكون موقفهم أكثر اتساقا مع الروح العلمية أن يتقدموا لبحث تلك الدعاوى بالوسائل العلمية المعروفة بدلا من أن يقتصروا على نفى وجودها ، والمجمع الجديد ينوى القيام بهذه المهمة تلبية لنداء مجلة (نايتشر) فى مقالها الرئيسى بعدد ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٣ (١) قال مستر جيرالد هيرد عضو اللجنة الاستشارية لمجمعنا فى كلمة أذاعها باللاسلكى يوم ٥ يناير ، إن الوقت قد حان ليتنبه العلم الرسمى إلى وجود ظواهر تشذ عن القوانين المعروفة فى العلوم الطبيعية ، ولاتتلئم مع أى نظام مادى ، ولا يصح إغفالها بعد اليوم ، منذ أربعين عاما كان رجال الطب ينكرون الدعاوى الغريبة التى جاء بها التنويم المغنطيسى ، ولكن التجربة والاختبار أثبتا صحة تلك الدعاوى وأهميتها ، وهاهو العلم اليوم فى موقف مشابه لموقفه ذاك منذ أربعين عاما . عند ماكنت طالب طب بالسنة النهائية ، كان زملائى من الطلبة يسخرون منى لمجرد قراءتى كتابا فى التنويم المغنطيسى ، ولكنى نجحت فى اقناعهم بصحة التنويم بأن نومت كبير الساخرين منى . قد أورد مستر هيرد فى خطابه المذاع باللاسلكى طرفا من تلك الظواهر النادرة الغامضة التى يزعمون حدوثها . ظواهر فيها المجال واسع لكل باحث كفء فى علوم الطبيعة والفزيولوجيا والسيكولوجيا . إن لدى العلم اليوم لأجهزة ووسائل للبحث غاية فى الدقة لم تكن موجودة منذ ثلاثين سنة ، مثل تصوير الاشعة فوق البنفسجية ودون الحمراء ، ومثل أشعة إكس والحاكى ومضخم الأصوات وأشرطة السينما وغيرها مما لم يكن يعرفه الذين بدأوا البحوث الروحية أمثال كروكس وريشيه ولدج . لن نبدأ البحث متأثرين باعتقاد فى الأرواح ولا بأى اعتقاد آخر . وسنسير على النمط الجامعى كما هو الحال فى معامل البروفسور وليم مكدوجال بأمريكا وفى جامعات أخرى بأوروبا . وسنعامل بكل اعتبار أولئك الذين يسمون بالوسطاء . وسيضطرب هذا المجمع فى مستهل حياته حتى يكون مستقلا فى ماليته ، ولكن رجال العلم ليسوا دائما ذوى مال ، ومعلوم أن بين الأثرياء اليوم من يهمهم جدا تشجيع هذه البحوث ، فلعلهم يجودون بسخاء لاقامة المجمع على دعائم مالية ثابتة . ونزولا على إرادة البروفسور مزيزرهاريس ، الذى أكد لى أنه يعبر عن رغبة باقى زملائه من أعضاء المجمع قد قبلت أعباء الرياسة ، ولكن ليس معنى هذا القبول أنى أعرف الكثير فى هذا الموضوع ، بل معناه أنى أتعهد بان أجعل البحث جديا وبعيدا عن كل تحيز .

هذا خطاب رئيس المجمع الجديد ، وقد أدلى إلى الصحف اليومية الأنجليزية بأحاديث لاتخرج فى معناها عما بهذا الخطاب . ؟

عبد المغني على حسين

خريج جامعة برمنجهام

---

(١) راجع مقالنا السابق بالعدد ٣٥ من الرسالة